الفندق الكبير

قصة بقلم جورج سالم

أنت الآن في هذا الفندق ، وما عليك الا ان تسارع الى النوم ، فقد أمضيت يوما طويلا شاقا ، ما كان ينبغي ان تحل في مثل هـذا الفندق الفخم ؟ ولكن لم يكن لك خيار في ذلك . ألم تبحث في فنادق المدينة عن مكان ، أي مـكان ، تأوي اليـه ولم تجد غرفة أو سريرا « شاغرا » ؟! هل غاب عن ذهنك الآن ان صديقك صاحب الفنـدق المتواضع الذي اعتدت ان تقيم فيه ، قد أجرى بناء على طلبك عشرات الهواتف ، واتصل بكل الفنادق التي يعرف بحثا لـك عن غرفة ما فلم يفلح في ذلك ؟

ـ لو ان ذلك كله لم يحدث ...

ومع ذلك فقد حدث ما حدث ، وأية فائدة في الحسرة على امور لست مسؤولا عنها . كان من المتوقع ـ بحسب تقديراتك ـ ان تصـل الى مدينة (ن) ظهرا ، فالمسافـة بين بلدتك وهذه المدينة لا تستغرق اكثر من سبع ساعات ، ولكن تعطل السيارة المفاجىء المتكرر ، لم يكـن بالحسبان . ثم هذا الطريق الخرب المتآكل ، لقد اضطر السـائق الى ان يخفف السرعة حتى ليظن الانسان انه يسير على قدميه ، ورغم ذلك فقد تمزق الدولاب فعمد الى استبداله بآخر . أرأيت ؟ ان هذا كله كان شيئا غير متوقع . وجاء اخيرا البحث الطويل ، وحقيبتك في يدك ، عن فندق ، أي فندق . ومن عجب أن تكون الفنادق كلهـا مملوءة . كان أصحاب الفنادق يظهرون برمهم حين تدق الجـرس ملتمسا غرفة تبيت فيها ، ورذاذ المطر يتساقط رهوا على كتفيك وعلى حقيبتك وعلى أرض الشوارع ، بينما خلت الطرقات من السـابلة او كادت ، وأغلقت جميع المخازن ، واطفئت أضواء معظم المنـازل ، وآوى كل انسان الى فراشه . ليس لك صديق او قريب في هـذه المدينة المترامية الاطراف فتطرق بابه على استحياء في مثل هذه الساعة وترجوه أن تبيت عنده هذه الليلة ، هذه الليلة وحسب ، ففي اليوم التالي ستعثر على فندق لا شك .

لا تقل ان أجر المبيت في هذا الفندق غال . فانت مضطر ولـن تضحي بأكثر من أجر ليلة واحدة وحسب . ثم ألم يخامرك شعـور بالفرح كبير ، حين رأيت أضواءه تلتهب في عتمة الليل ، لقد بدا لك كالواحة ، عامرا بأضواء الثريات ، حافلا بالرجال والنساء ، وامامه صفوف من السيارات تترجل منها مجموعات من الناس ، وتركب فيها مجموعات اخرى ، والخدم ذاهبون آيبون ، لا يفتأون يفتحون الابواب الزجاجية ويقفلونها ، ووقفت انت ترقبهم بكثير من البهجة .

قلت في نفسك قبل قليل : « هل أجد مكانا في هذا الفندق وقد عجزت عن العثور عن اية غرفة في اي من فنادق المدينة ؟ فلاجـرب . هي ليلة واحدة لا غير ، ولاتمتع بهذه الرفاهية التي لم ارها الا فـي الافلام » .

غرف هذا الفندق عديدة ، وما أسرع ما وجدوا لك هذه الغرفة . انها في الطابق الاول ، ولكن لا أهمية لذلك . حسبك انك وجـدت المأوى ، واي مأوى ! هذه الغرفة الجميلة ، هذه الستائر المخمليـة التي لم يعرفها منزلك ، وهذا السرير ؟ انه رحب وثير نظيف يلتمـع التماعا . وانظر الى السقف ، هذا الطلاء الجميل بالوانـه البنفسجية المتناغمة . وفي وسط السقف تدلت ثريا ، ينعكس عليها ضوء مصبـاح السرير فتشع قطعها الزجاجية . زجاجية ؟ أنها من الكريستال ، هي واحدة من أصغر الثريات التي تملأ سقوف الابهاء . تحت رجليك قطعة من السجاد ، حمراء اللون ، تتوسطها بركة ، تمهل في السير عليها . المكان دافىء رغم برودة الطقس في الخارج . لست مغبونا مهما اخذوا منك . ارى انك لم تحب هذا الموظف الكبير الذي طلب منك هويتك الشخصية . احساسك صادق ، ففي وجهه عنجهية لا مبرر لهـا . لعله استصغر شانك . فليكن . المهم ان تنام قرير العين بعد العنـاء الطويل ، ولست أرى ان تستيقظ قبل العاشرة صباحا . وليكن هذا اليوم أجازة العمر .

حين قرع الباب كنت قد نزعت سترتك وربطـة العنق والقميص والحذاء . قلت في نفسك : « ماذا يريدون أيضا ؟ »

بدا الخادم محرجا يتلعثم في كلامه :

ـ سيدي ، رأت الادارة ان تنقلك الى غرفـة اخرى من غرف الطابق الثاني ، فقد وجدت انها بحاجة ماسة الى غرفتـك هـذه الليـلة .

ـ ولكنني على وشك ان انام ..

ـ ارجو ألا يضايقك ذلك ، والادارة تبلغك اعتذارها الصادق ، ولكنها بحاجة الى الغرفة بمناسبة عرض المسرحية ، وغرف الطابـق الثاني كثيرة وافضل من هذه . ثق يا سيدي بما اقول ، فانا اعرف هذا الفندق .

نظرت في دهشة وحيرة :

ـ أية مسرحية ؟

عندها أبدى الخادم جهله بهذا الموضوع . ولكنه قال لك :

ـ سنقوم انا وزملائي بنقل امتعتك الى فـوق بسرعة كبيرة . ما عليـك الا ان تصعـد الى الطابق الثاني .

وصعدت الى الطابق الثاني . وعندئذ بدأت متـاهة العذاب . هناك التقيت بشاب من بلدتك . لقد سررت كثيرا لرؤيته . قلت له :

ـ اراك ههنا .

ـ لقد انتهى عملي اليوم وسانصرف .

ـ وانت تعمل في هذا الفندق ؟

ـ نعم ، ولكنهم قد يستغنون عني في الايام القريبة القادمة .

قال لك وهو ينظر الى جذعك شبه العاري :

ـ وانت ماذا تفعل ههنا ؟ ولماذا اراك في هذه الهيئة ؟

ـ لقد نقلوني الى غرفة في هذا الطابق ، وانا في انتظار ان يعطوني الغرفة الجديدة وينقلوا امتعتي .

ـ آه ، فهمت ، بسبب المسرحية .

واضفت انت في لهجة ظهر فيها ضيقك وألمك :

ـ حبذا لو ساعدتني في ذلك !

ـ الامر بسيط جدا ، ولا يحتاج الى مساعدة . ان هي الا دقائق قليلة . ما عليك الا ان تتوجه الى هذا الموظف الواقف هناك .

وأشار بيده الى موظف كهل يقبع امام منصة كبيرة . ثم ودعك وخرج من باب جانبي .

ووقفت تنتظر وطال انتظارك . لم يكن آنذاك بد من ان تتوجه الى الموظف الكهل الواقف امام المنصة . قلت له بشيء من العصبية :

ـ لقد نقلوني الى غرفة في هذا الطابق ، فاين غرفتي واين امتعتي ؟

لم يكن على علم بشيء من ذلك كله ، فابدى عجبه وشيئـا من

الامتعاض :
ــ لم يبلغني احد شيئا .
ثم نظر اليك في كثير من الازدراء ، كادت عيناه تنزعان البقيـــة الباقية من ثيابك .
ــ كيف تتجول بهذا المظهر ، وفي مثل هذا الفندق ؟
نظرت الى نفسك وشعرت بالخجل والضيق . قلت له :
ــ أنتظر تعيين الغرفة ، ووصول ثيابي من غرفتي السابقة تحت .
وتفكر مليا ثم قال :
ــ من سيحضر لك الثياب ، والخدم كلهم منهمكون باعداد البهو السفلي وتهيئة المقاعد للمسرحية !
فصرخت :
ــ المسرحية ، كلكم يتحدث عن المسرحية ، أية مسرحية تعني ؟
نظر اليك باشمئزاز ولم يجب . وقدرت ان عليك ان تنزل بنفسك لتجلب حقيبتك ومنامتك التـــي كنت قد اخرجتها عـــلى وشك ان ترتديهـا .
حين هممت بالنزول كانوا قد سدوا مطلع السلم الذي صعـدت منه ، واعترض طريقك خادم فقال لك :
ــ انزل من السلم الخلفي .

وامتثلت لما قال ، وحين وصلت الى الطابق الاول ضاع المكــان عليك ، ورحت تسير في ممرات شبه مظلمة ، ثم اذا بك تهبط بضع درجات . رحت تردد في نفسك « اين غرفتي ؟ اين غرفتي ؟ » .

وبدت لك من بعيد ، يحجبها المتفرجون . بابها مغلق ، وقـــد أسدل عليه ستار ، ومن الجهة الاخرى التي تطل على ما يشبه المنصة ظهر في الجدار باب يصلها بالمنصة . كان أنقوم سكوتا ، والستــار مرفوعا ، الا ان الصمت كان يخيم على المكان . المتفرجـــون نائمون والمنصة فارغة ، ولم يكن ثمة من ديكور .
وأردت أن تسير بين الصفوف لتبلغ الغرفة وتحضر منها اشياءك ، واعترضك الخدم مرة ثانية :
ــ انتظر ريثما ينتهي الفصل الاول .
وتسللت عائدا الى فوق ، كانت الساعة قد قاربت الواحـــدة بعد منتصف الليل . قلت في نفسك :
ــ سأنام هكذا بالثياب الداخلية ، المهم ان انام .

أردت ان تعرف اين الغرفة التي نقلت اليها . وتوجهت الـــى الموظف الكهل . كان رتل من الناس المتأنقين في ثياب السهرة واقفين امامه ، بعضهم يصرف الدولارات وآخرون يشترون الدخان . ولفـت انتباهك بينهم فتاة فارعة الطول شقراء الشعر باهرة الجمال تضـــع على كتفيها شالا أسود . التقت عيناك بعينيها فنظرت اليك نظرة اشفاق . أنت لا تحب نظرات الاشفاق هذه . ثم قالت لك :
ــ ارتد ثيابك على عجل وهلم معنا نشهد المسرحية .
قلت لها :
ــ انني نعسان ، وبحاجة الى النوم .
فضحكت ، كانت ضحكتها لطيفة غضة ، ثم اختفت كالحلم .
قال لك الموظف الكبير بعد ان تفرق الناس من امامه
ــ لم يبلغوني شيئا عنك ، ولم تحجز لك ايـة غرفة !
قال هذا ووقف ، ثم أخرج من جيبه رزمة مفاتيح فقفل ادراجه وتمتـــم :
ــ سأمضي لاشاهد المسرحية ، وسنجد لك مخرجا بعد انتهائها .
ووقفت في مكانك مغتاظا متضايقا متألما .
وخطر لك ان تعود ادراجك الى غرفتك ، وصممت على ذلك .
حين اجتزت الممرات المعتمة ووصلت الى الطابق الاول كان الفصـل الثاني قد بدأ ، فمنعوك من التقدم . سألك أحد الموظفين :
ــ هل معك بطاقة دخول ؟
ولما أنعم النظر فيك هتف :
ــ أبمثل هذا المظهر تريد ان تحضر العرض المسرحي ؟
لم تجبه بكلمة لشدة غيظك . ووقفت لحظات ترقب ما يجري على المنصة : لم يكن هناك شيء على الاطلاق . فصعدت الى الطابق الثاني متلمسا طريقك بأطراف اصابعك . اذ كان النور شديد الشحـوب . وفي الطريق تعثرت بأحد الخدم فصرخت في وجهه :
ــ وهل تطول المسرحية ؟
كان هذا الخادم ، فيما بدا لك ، ثرثارا ، فراح يحدثك عنهـــا باسهاب ، ولكنك لم تفهم حرفا مما قال . قلت له
ــ كفى ، كفى . انني أسأل هل هي طويلة ؟
فأجاب بهدوء :
ــ من يدري ، هي طويلة جدا او قصيرة جدا . فصولها كثيـرة جدا ، ولكن الفصل منها قصير جدا .

حين وصلت الى الطابق الثاني الغارق في العتمة ، كنت قـــد اتخذت قرارك : أن تقتحم الغرف ، كل الغرف ، وتنام في أيها تجدها فارغة . ووقفت تتفرس في البهو . حيث كان يجلس الموظف الكهل . البهو واسع وعلى جانبيه امتد عدد كبير من الابواب المتشابهة المتناظرة ، بيضاء اللون ، مغلقة ، نظيفة . ولما دنوت مـن واحـد منهـا تتلمس مقبضه صعقتك الدهشة : انه باب مزيف ، وبسرعـــة رحت تتحسس الابواب الاخرى كأنما أدركت ان هناك خطرا جسيما يتهـددك . كانت الابواب كلها مزيفة ، لقد صورت على الجدران تصويرا ، الا انهـــا لا تفضي الى شيء . عند ذاك شعرت بكثير من المرارة .

وقفت تنظر حولك في استياء وألم وضيق . كنت كمن يريد ان يحطم شيئا . ولكن ما من شيء امامه يحطمه . وارتفعت عيناك الـــى السقف في ما يشبه الضراعة . وآنذاك ، آنذاك على وجه الدقـــة رأيته في زاوية من زوايا السقف . كان أسود اللون كبير الحجم يملا قبضة اليدين ، لم تر مثله في حياتك كلها وصرخت :
ــ في مثل هذا الفندق تعيش العناكب ؟
ويظهر انه هو أيضا قد رآك ، فراح يحث الخطا حتى وصل الى حيث انت واقف . وصرخت مرة ثانية :
ــ يا للقذارة !
وفي دهشة بهرت أنفاسك ودفعت قلبك الى ان يضاعف مـــن ضرباته ، رأيته يقترب منك ، نعم ، منك انت حتى وقف فوق رأسك تمامـــا .
وكاد يغمى عليك لا خوفا بل اشمئزازا .
في تلك اللحظة مد أرجله السود العديدة ، عشرات الارجـل ، فأحاط بك كأنما انت واقف في قفص ، واستحالت أرجله الى ما يشبه أعمدة الحديد .
صرخت اخيرا
ــ دعني ، ماذا تريد مني ؟
لم يجبك احد ، فرحت تصرخ وتستغيث ولكن لم يسمعك انسان ولم يأت لنجدتك مخلوق .
فكرت أن تقاوم . ولكنك كنت اعزل ، وحاولت أن تصرخ ولكـن دوي التصفيق المستمر في الصالة خنق كل صوت .
وأخيرا وقعت أرضا مستسلما للسموم التي تبثها اطراف ارجله العديدة من حولك . وبدأ نزعك الطويل .
وحين همدت حركتك ، كانت المسرحية قد انتهت .

حلب — **جورج سالم**